قصتنا كما يرويها ..

على قارعة الطريق

قصة : أحمد محمد إسماعيل

ترجمة : محمد صابر محمود

توقّف منتظراً . حتى ذابت القرية في أعماق الظلمة . . تجثم القرية على يسار طريق جانبيّ . . لولا عواء بعض الكلاب السائبة المهزولة ، ونباحها المستمرّ ، فإنّ قلّةً من الناس تستطيع أن تلتفت الى وجودها ، أو أن تتعرّج عليها . من بين عشرات البصمات لاظلاف المواشي المنطبعة على الأرض ، والسبل الرفيعة المتعرّجة ، إنحدر آخذاً سمته على إحدى السكك الضيقة ، حتى أوصلته أمام باب أحد الأحواش لمنزلٍ غير متناسق البناء ، بادي الأعوجاج .

توّقف لحظة . . من وراء الباب الصد يْ ، المصنوع من صفائح التنك ، كان ثمة صوت سعلة لأحد الرجال ، يختلط بين الفينة ، والفينة بكداس[1] إحدى البهائم

صرير الباب أثار نأمة .تذمّر لدى ذلك الرجل ، وفي الوقت ذاته بعث الحركة في ظاهر أذني البهيمة القابعة بجانب الباب . وسط الحوش ، كان ثمة من فانوسٍ ينير بضوئه الخافت عتمة الظلام أمام رجل طاعن في السنِ ، مضطجع هناك .

رفع الشيخ الهرم إحدى يديه ، واضعاً إيّاها فوق باصرتيه ، ثمّ رنا الى ناحية الباب . . وإذ اقترب إليه صاحبنا وضع ثقل جسده على يده الأخرى ، وكان يهمّ بالنهوض . . غير أن صاحبنا هذا ، وحتى عندما أخذ مكانه ، وجلس ، فإنّ الشيخ كان لا يزال متأرجحاً بين وضعية القيام ، والجلوس . . وقد غرز فيه عينين ممتلئتين بالأسئلة ، تجوسان في سيمائه دون أن تريما عنها ، ارتجفت أخيراً شفتاه مرّةً أو مرتين ، وبصوت مرتعش النبرات ، رحّب به عدة مرات ، ثم أطرق أطراقته التي لم يرفع رأسه بعدها . . «هل تُراه منزعجاً لقدومي ؟ !» .

أراد أن يوضّح له ، بأنه ليس سوى مسافر مستطرق ، وليس في نيته البقاء : —

– إنّني في طريقي الى تلك القرية . . هل ثمة من طعام ؟

لم يمهله كي يكمّل كلامه . . استدار قليلاً ، ثم نادى :

(هيّا» . . «لو كان كارهاً لا ستضافتي ، لاختلفتْ نبرات صوته ، وكان نداؤه على شاكلة أخرى» .

مع التفاتة الشيخ الهرم التفت هو أيضاً . . على بعد خطوات من الجانب الآخر كانت إمرأة عجوز واقفة . . تنظر بعينين تنمان عن كآبة وحزن عميقين . . «لكنّني عاجز عن فهم صمتها المطبق ، والذهول الذي يرين عليهما» .

لبرهة من الوقت ، لم يكن يدري ماذا يفعل . . على حين غرّة طرق سمعه صوت نشيج مختنق . . تضاعف ارتباكه ، فأحسّ في قرارته بالندم على اختياره الذي وقع من دون بيوت القرية كلّها على هذا البيت الذي أراد أن يريح فيه قدميه قليلاً من عناء السفر . . «ربّما قد حدثت بينهما مشادة بسيطة قبل حضوري» .

لم يطل الوقت كثيراً ، حتى وضعت العجوز أمامه ما كان متوافراً من طعام كيفما كان . . ثم ومن دون أن ترفع عنه نظراتها ، انسحبتْ مباشرة الى الوراء . . راحت فتقرفصت بجانب الرجل الطاعن في السن . . «إنه حقاً لأمر غريب ! ! . . على أية حال ، مالي ، ولهما ؟ ! . . فلأبدأ أنا بتناول طعامي ، وليفعلا ما بدا لهما . . أجل . . ربّما ، إنهما أيضاً على ديدن والدتي . . . إنّني ياولدي حينما أرى واحداً من أترابك ، فإنه يذكّرني بك . . ربّما . .» رفع لقمة ، فأرسلها الى فمه . . التصقتْ تأملاته بالمرأة العجوز . . «والله . . . ها» ، تيبسّتْ يده باللقمة ، تعذّرت عليه إعادتها . . تحجّرت اللقمة في فمه . «. . . ها . . . عجباً إن هذه هي أم حسين . . إنها هي بلحمها ، ودمها . . ولكن من أين لها أن يتعرّفا عليّ ، لقد رأيتها لمرّة واحدة فقط» .

رفع رأسه . . كانت العجوز تخطو صوب إحدى الغرف المعتمة « . . إنّها هي . . أنا أدري بأنّها الآن تشرع بالبكاء» . تحسّسَ (البازبند) المربوط بساعده «ولكن ما الذي أوصلها الى هنا ! ؟» . . كان ذلك في مطلع شتاء قارس قبل سنوات عدّة . . حيث حللنا مصادفة بقريتهم . . اعترضت هذه المرأة العجوز طريقنا ، توسّلتْ بنا : سلّموا هذا (البازبند) لولدي (حسين) . . أخذت منها (البازبند) ، إلاّ أننا ، وقبل أن نصل إليه كان قد غاب عن أنظارنا نهائياً . . . بعدها ، لم أكن براغبٍ عن إعادة هديتها إليها ، فحسب وإنما كنت أكره أن أمرّ مجرّد مرور بتلك القرية أيضاً . . لماذا حملتني رجلاي من دون كلّ هذه البيوت الى هنا ؟ ! . . إنني أعلم بأنّ جروحهم تُنكأ لرؤية أمثالنا .

حلّ (البازبند) بهدوء من ذراعه . . وضعه على البساط . . إحتذى حذائيه . . لم يكن قد وصل الباب بعد حينما تناءى الى سمعه صوت نحيب حار يصدر عن العجوز . إلتفت الى الوراء . . كان الشيخ لا يزال مطرقاً ، لكنّه كان يغلي كالرجل .

الهامش

١ – الكداس : الكدسة : عطاس البهائم ، وقد تستعمل للانسان .

٢ – البازبند : التعويذة ، أو العوذة ، تغلّف وتربط بالساعد . . وتسمى (الرقية) أيضاً للأتقاء من العين .

هذه القصة منشورة ضمن مجموعة القاص الموسومة بـ (الانتظار) المطبوعة من قبل وزارة الثقافة والأعلام – مديرية الثقافة والنشر الكرّية . بغداد سنة ١٩٨٢ .